كتاب

تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة

في

العقل أو مرذولة

تأليف

أبو الريحان البيروني

(ت : ٤٤٠هـ - ١٠٤٨م)

(عرض ونقد)

الدكتور

محمد علي الجندي

أستاذ الفلسفة الإسلامية المساعد

ووكيل كلية الدراسات العربية

جامعة المنيا

(١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م)

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة :

الحمد لله .. والصلاة والسلام على نبينا المصطفى ومن ولاه ..

أما بعد ..

فيتكفل هذا البحث " بعرض ونقد " كتاب من أهم الكتب في التراث العلمي الإسلامي للعلامة المسلم " أبي الريحان البيروني " (ت ٤٤٠هـ - ١٠٤٨م) وهو كتاب " تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة " أو " تاريخ الهند " ، والذي يعتبر مرجعا أساسيا كاملا للحضارة الهندية ، أراد البيروني به أن يكون مرجعا لكل مسلم يرغب في مناقشة الهنود ، فيكون حوار الند للند .

فقد استقصى فيه البيروني أحوال الهند وأخبارها ودياناتها وأساطيرها ووصف عاداتها وأخلاقها وأزيائها في إفاضة عجيبة وأخذا بالأطراف ، ولهذا أجمع النقاد على أن تأليفه في التاريخ من خير المراجع لاستطلاع أخبار الشعوب الشرقية وحوادثها وأساليب معيشتها . وقد ساعد على ذلك إتقانه لعدة لغات وخاصة اللغة السنسكريتية ، وعدد من لغات الهند .

والبيروني عالم متعدد الجوانب العلمية فإلى جانب إحاطته بعلم الفلك برز في الرياضيات والطب والأدب والتاريخ ، ولمع من بين علماء المشرق والمغرب حتى اعتبر من واضعي الأسس الأولى لعلم حساب المثلثات ، وكان في الوقت نفسه فيلسوفا وعالما جغرافيا ، وكان أيضا من علماء الفيزياء .

ولما كان هذا البحث يهدف إلى إلقاء الضوء على كتاب من أهم الكتب في بابه وتصنيفه، والذى لا غنى عنه لكل دارس لتاريخ الهند وحضارته وأديانه ولغاته المختلفة .

كذلك لما كان هذا الأمر يتطلب ضرورة التعرف على مؤلفه وأهم انجازاته في مجال العلوم المختلفة إلى جانب التعرف على خصائص منهجه العلمي - على وجه

العموم – والمنهج الذي استخدمه في كتابه الذي بين أيدينا على وجه الخصوص ؛ لذلك فقد قسمنا البحث إلى قسمين رئيسين :

القسم الأول (مدخل الدراسة) : ويشمل الحديث عن مدى اهتمام المسلمين بتراث الهند ثم التعريف بمؤلف الكتاب وعصره وأبرز من ترجموا له مع الإشارة بإيجاز إلى أهم مؤلفاته وظروف تأليفها ، ثم التعرض بعد ذلك لأهم ملامح المنهج عنده ، وإلى أي مدى طبقه في دراسته .

أما القسم الثاني (التعريف بالكتاب): ويتضمن التعريف بالكتاب،ثم عرض المسائل التي تعرض لها الكتاب من خلال فصوله في إطار تحليلي نقدي والتعرف على أهم مصادره وما يحويه من آراء وحقائق علمية حول بلاد الهند وأحوالها .

ثم نخصص **التعقيب** – في النهاية – لعرض أهم ما توصلنا إليه من نتائج.

والله من وراء القصد ،،

الباحث

القسم الأول

(مدخل الدراسة)

أولا : مدى معرفة المسلمين بأحوال الهند [١] :

ترجع معرفة المسلمين بديانات الهند وأحوال شعوبها إلى عهد بعيد ، حيث دخلوها في أواخر القرن الأول الهجري [٢] ، ثم توغلوا فيها بعد ذلك ابتداءا من أواخر القرن الرابع الهجري ، حيث استطاع علماؤهم أن يقفوا على ما عند الهنود من فنون المعرفة الكثيرة ، على نطاق واسع [٣] .

---

(١) من المناسب أن نشير إلى أنه سبقت محاولات لدراسة الهند قبل الإسلام ؛ حيث سبق علماء المسلمين مؤرخ إغريقي ، وسفيران بوذيان من الصين .. أما المؤرخ اليوناني فهو (ميغاستين) الذي أرسله الامبراطور (سلوكس الأول) عام ٢٩٥ ق . م إلى ملك جندراكبتا بعد جلاء (الاسكندر) عن الهند فألف كتابا عن تاريخ وحياة شعب الهند وجغرافية تلك البلاد ، لم يبق من فصوله إلا مقتطفات قليلة كما أن كتابه لم يلق نجاحا أو قبولا .

أما السفيران البوذيان فأولهما الكاهن الصيني (هيون سانج) Hwen Thang الذي ذهب إلى الهند وساح فيها قبل البيروني بأربعمائة عام ، ثم تبعه (فا - هين) Fa Hain عام ٦١٣م وفي مقالاتهما وصف لبلاط ملوك الهند ، وما كان به من فلاسفة وشعراء وما كان بتلك البلاد من من جامعات .

إلا أن كل ما كتبه هؤلاء لا يرقى إلى مرتبة ما كتبه البيروني في ذلك : (انظر : علي أحمد الشحات : البيروني ، حياته ، مؤلفاته ، أبحاثه ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص٨٥) .

(٢) من أوائل الحملات الإسلامية الناجحة على الهند الحملة التي نظمها الحجاج بن يوسف في عهد الأمويين ، قادها محمد بن القاسم في عام (٩٥هـ) وقد نتج عن هذه الحملة ضم السند مع جزء من البنجاب إلى الخلافة الأموية . وكانت بلاد السند حتى ذلك العهد هي الإقليم الوحيد الذي حكمه العرب مباشرة . وقد زار السند عدد من جغرافي المسلمين كالمسعودي وابن حوقل والاصطخري والإدريسي ، تركوا أوصافا طريفة لهذا الاقليم (انظر : المسعودي : مروج الذهب ، طبعة القاهرة ، ١٣٤٦هـ ، ص٥٥ وما بعدها .

(٣) د. أحمد محمود الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ، طبع القاهرة (د . ت) صـ/ز

وقد حصر صاحب الفهرست قوائم بأسماء وكتب الهند في علوم الطب والحساب، والأسمار والخرافات بالإضافة إلى كتبهم في المذاهب والمعتقدات الهندية الموجودة بلغة العرب (٤).

وقرر – في موضع آخر – أنه اطلع على كتب الهند وأديانها : حكى بعض المتكلمين أن يحيى بن خالد البرمكي بعث برجل إلى الهند ليأتيه بعقاقير موجودة في بلادهم ، وأن يكتب له عن أديانهم ، فكتب له هذا الكتاب . ويقرر أيضا أن الذي عني بأمر الهند في دولة العرب هو يحيى بن خالد وجماعة البرامكة ، وأنهم أحضروا علماء طبها وحكمائها (٥).

ولا عجب في ذلك فالمسلمون الذين أسهموا في حفظ تراث اليونان وزادوا عليه ، هم أنفسهم الذين أظهروا العالم على الكثير من تراث الهند الذي اطلعوا علية فجر الإسلام وضحاه ، فحبب إليهم الاستزادة بما عند غيرهم من مختلف فنون المعرفة (٦).

ولذلك أكب علماؤهم على ما عند الهنود من صنوف العلم والمعرفة ، على نطاق واسع ، من أفواه المشتغلين بها من رجالهم بعد ما كانوا قد اطلعوا على قدر منها في بطون كتبهم ويتعرفون على أحوالهم وعقائدهم بمخالطتهم ومسائلة كهنتهم ورهبانهم ومناظرة فلاسفتهم (٧).

ويجيء على رأس هؤلاء العلماء – السابق ذكرهم – العالم الرياضي والفلكي المعروف " أبو الريحان البيروني " الذي صنف سفره القيم الذي بين أيدينا عن تاريخ

---

(٤) ابن النديم : ك الفهرست ، طبعة ليبزج ، سنة ١٨٧١ ، ص١٣٥ .

(٥) السابق : ص٤٩٨ .

(6) Havell E. B.: The history of Aryan Rule in India, London (n. d.) P.254.

(٧) من الجدير بالذكر أن " معمر بن عباد السلمي " عالم المعتزلة الكبير كان واحدا من المتكلمين الذين بعثوا إلى الهند لمناقشة علمائها في الأديان (انظر : د. على سامي النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام جـ/١ دار المعارف (د . ت) ص٢٢٠ .

الهند، والمعروف باسم " تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة " حيث يعد هذا الكتاب من أعمق الكتب تحليلا ودراسة لديانات الهند وأحوال شعوبها .

ثانيا : التعريف بالمؤلف وعصره :

١- أصله :

هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني [٨] . ولد في مدينة كاث ، من ضواحي خوارزم ، ومن الراجح أنها كانت تقع على الضفة اليمنى من نهر جيحون (أموداريا) ، في الشمال الشرقي من مدينة خيوة الحالية [٩] .

---

(٨) انظر في ترجمته : السمعاني : الأنساب جـ/٢ حيدر أباد الدكن ١٩٣٦م ، ص٣٩٢ ، وأيضا : ياقوت الحموي : معجم الأدباء جـ١٧ ، طبع القاهرة ١٩٣٦م ، ص١٨٠ ، القفطي : تاريخ الحكماء ، ليبزج ، ١٩٠٣م ، ص٩٧ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء جـ/٢ ، طبع القاهرة ، ١٣٠٠هـ ، ص٢٠ ، ٢١ . وقد أشار ابن أبي أصيبعة في (عيون الأنباء) إلى أن لقب البيروني يرجع إلى بلده بيرون في السند ، بينما ذكر السمعاني في (الأنساب) أن التجار كانوا يقطنون خارج أسوار العاصمة تخلصا من دفع المكوس على البضائع الداخلة إليها . وكان يطلق على من يعيش خارج البلدة اسم (بيروني) بالفارسية ، وهذا الخلاف في اصل البيروني لا يجدي فتيلا ، خاصة وأنه هو نفسه لايحبذ الانتماء القومي والتعصب المذهبي بقدر ما يهتم بالانتماء العلمي ، ويظهر ذلك جليا في مؤلفاته التي اصطبغت جميعها بالمنهج العلمي البعيد عن كل ألوان الميول والاتجاهات العرقية والمذهبية .

ومن ثم لم يظهر أي أثر واضح في مؤلفاته لانتمائه المذهبي ، وإن كان يظهر الولاء لأهل بيت رسول الله ﷺ إلا أن هذا الولاء يختفي شيئا فشيئا حتى لا تكاد تعرف له مذهبا دينيا في كتاباته المتأخرة، بل لم يظهر في حياته وسلوكه أنه كان يفضل مذهبا دينيا على آخر ، ويروى أنه كان يتختم خاتما برمزين مختلفين من حجر واحد أحدهما يمثل أهل السنة والآخر يمثل أهل الشيعة . (انظر : بروكلمان : دائرة المعارف الإسلامية . ترجمة محمد ثابت الفندي وآخرين (د . ت) مجلد ٤ مادة البيروني ص٣٩٧ .

(٩) أطلقت حكومة جمهورية أوزبكستان السوفيتية على هذه المدينة اسم " مدينة البيروني " تخليدا لذكرى البيروني (انظر : البيروني : د. جمال الدين الفندي ، د. إمام إبراهيم أحمد ، سلسلة أعلام الفكر ، طبعة القاهرة ، سنة ١٩٦٨ صـ ٩٥) .

ولا نعلم كثيرا عن بداية حياته وانكبابه على الدراسات العلمية ، إلا أننا نراه في السابعة عشرة من عمره يستخدم حلقة مدرجة لمراقبة ارتفاع الشمس عند خط زوال مدينة كاث ويواصل أرصاده وقياساته .

٢- الحياة السياسية في عصره :

كان الوضع السياسي مضطربا في البلاد التي عاش فيها البيروني واتصل أبو الريحان بأمراء خوارزم من أسرة خوارزمشاه ، ثم انتقل إلى الري ولاشك أنه التقى فيها بالخوجندي واضع " السدسية الفخرية " التي أهداها لفخر الدين البويهي ، ثم عاد البيروني إلى كاث وفي ٢٤ مايو ٩٩٧م رصد بها خسوفا للقمر بعد أن اتفق مع أبي الوفاء البوزجاني كي يتولى هذا الأخير رصد عين الظاهرة في بغداد وبناءًا على فرق الزمن في الرصدين تمكن العالمان من تدقيق الفرق في الطول بين مدينتي بغداد وكاث .

ولحق أبو الريحان بقابوس بن ومشكير بعد أن استرد حكمه على جرجان عند الطرف الجنوبي الشرقي لبحر قزوين ، وذلك في فترة حكمه التي تتراوح بين سنتي (٣٨٨ - ٤٠٠هـ/ ١٠١٢م) فأهدى البيرونيُّ قابوس بن ومشكيركتاب " الآثار الباقية عن القرون الخالية "

وفي عام ١٠٢١م أخضع السلطان الفاتح محمود لحكمه وادي الكنج بالقارة الهندية حتى مدينة بنارس ، ووصل سنة ١٠٢٦ إلى المحيط الهندي وصاحب البيروني السلطان محمود حيث اهتم باللغة السنسكريتية وبحضارة الهند إلى جانب اللغة اليونانية والسريانية، وسافر إلى إقليم البنجاب وكشمير وما لبث أبو الريحان أن أنجز كتابه الموسوعي" تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة للعقل أو مرذولة " .

رجع البيروني بعد ذلك من الهند ، واستقر في بلاط الغزنوي ثم أهدى السلطان مسعود كتابه " القانون المسعودي " وقد أتم تنقيحه في الفترة من عام (١٠٣٠ - ١٠٣٦م) وأتبعه برسالته المعروفة " التفهيم لأوائل صناعة التنجيم " .

ولا نعلم كثيرا عن بداية حياته وانكبابه على الدراسات العلمية ، إلا أننا نراه في السابعة عشرة من عمره يستخدم حلقة مدرجة لمراقبة ارتفاع الشمس عند خط زوال مدينة كاث ويواصل أرصاده وقياساته .

٢- الحياة السياسية في عصره :

كان الوضع السياسي مضطربا في البلاد التي عاش فيها البيروني واتصل أبو الريحان بأمراء خوارزم من أسرة خوارزمشاه ، ثم انتقل إلى الري ولاشك أنه التقى فيها بالخوجندي واضع " السدسية الفخرية " التي أهداها لفخر الدين البويهي ، ثم عاد البيروني إلى كاث وفي ٢٤ مايو ٩٩٧م رصد بها خسوفا للقمر بعد أن اتفق مع أبي الوفاء البوزجاني كي يتولى هذا الأخير رصد عين الظاهرة في بغداد وبناءًا على فرق الزمن في الرصدين تمكن العالمان من تدقيق الفرق في الطول بين مدينتي بغداد وكاث .

ولحق أبو الريحان بقابوس بن ومشكير بعد أن استرد حكمه على جرجان عند الطرف الجنوبي الشرقي لبحر قزوين ، وذلك في فترة حكمه التي تتراوح بين سنتي (٣٨٨ - ٤٠٠هـ/ ١٠١٢م) فأهدى البيرونيُّ قابوس بن ومشكيركتاب " الآثار الباقية عن القرون الخالية "

وفي عام ١٠٢١م أخضع السلطان الفاتح محمود لحكمه وادي الكنج بالقارة الهندية حتى مدينة بنارس ، ووصل سنة ١٠٢٦ إلى المحيط الهندي وصاحب البيروني السلطان محمود حيث اهتم باللغة السنسكريتية وبحضارة الهند إلى جانب اللغة اليونانية والسريانية، وسافر إلى إقليم البنجاب وكشمير وما لبث أبو الريحان أن أنجز كتابه الموسوعي" تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة للعقل أو مرذولة " .

رجع البيروني بعد ذلك من الهند ، واستقر في بلاط الغزنوي ثم أهدى السلطان مسعود كتابه " القانون المسعودي " وقد أتم تنقيحه في الفترة من عام (١٠٣٠ - ١٠٣٦م) وأتبعه برسالته المعروفة " التفهيم لأوائل صناعة التنجيم " .

توفي البيروني سنة ٤٤٠ هـ – ١٠٤٨م عن سبع وسبعين عاما ودفن – رحمه الله – بغزنة (١٠).

ثالثا : أهم مؤلفاته :

حُصِرَتْ مؤلفات البيروني ما بين مطبوع ومخطوط وموجود ومفقود ، فوجد أنها تبلغ مائة وثمانين كتابا ورسالة (١١).

ومن سوء الحظ أن كثيرا من هذه المؤلفات قد ضاع أو بقي تحت غبار المكتبات الخاصة وهو نفسه قد ذكر في مقدمة كتابه " الآثار الباقية " فهرسا لأسماء ١١٣ من هذه الكتب ألفها قبل سن ٣٦ سنة نقتصر منها بإيجاز على ذكر المؤلفات التالية (١٢) :

– " كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم " وهو كتاب تعليمي فى علم الفلك والهندسة والتنجيم وهو في نسختين إحداهما بالعربية والأخرى بالفارسية وهو كتاب يجمع بين الأدب والفلك

– " القانون المسعودي " وهو موسوعة في الحسابات الفلكية يشتمل على إحدى عشرة مقالة تتضمن ما يفوق مائة وأربعين بابا (١٣).

– كتاب " الصيدنة في الطب " حققه وترجمه إلى الإنجليزية حكيم محمد سعيد كراتشي ١٩٧٣م وهو كتاب استقصى فيه البيرونى معرفة ماهيات الأدوية ومعرفة أسمائها وقد رتبه على حروف المعجم كسائر كتب علم الأقرباذين المعروفة .

---

(١٠) غزنة : أفغانستان الآن .

(١١) نشر البيروني بنفسه فهرسا بأسماء مائة وثلاثة من هذه المؤلفات وذلك في كتابه " رسالة في فهرس كتب محمد بن زكريا الرازي " الذي نشره ماكس كراوزه عام ١٩٣٦ .

(١٢) انظر : كارل ألفونسو نللينو : علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى ، روما ١٩١١م وأيضا : محمد كرد علي : جواهر البيروني (مجلة مجمع دمشق العدد ١٧ لعام ١٩٤٢ ص١٦٠)، د. محمد سويسى : أدب العلماء جـ/١ ، ط/٢ ، تونس ١٩٨٣ ، ص٢٩ وما بعدها .

(١٣) صدرت منه عدة طبعات : طبعة ليبزج صنة ١٨٧٨ بتحقيق إدوارد سخاد ، طبعة بالإنجليزية عام ١٨٧٩م ، طبعة حيدر أباد الدكن بالهند سنة ١٩٥٤ .

- مقالة في تصحيح الطول والعرض لمساكن المعمور من الأرض .

- كتاب تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن ، تحقيق ب . بولجاكوف عام ١٩٦٢م وهو كتاب فى الجغرافية الوصفية والرياضية .

- الجماهر في معرفة الجواهر ، طبع حيدر أباد الدكن ١٣٥٥ وهو من أهم مؤلفات البيرونى فى علوم المعادن والبلورات والجيوكيمياء Geochemistry .

- كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية ترجمة إدوارد سخاو ، عام ١٨٧٩ ألفه فى حورحان وأهداه إلى أميرها ويرجع تاريخ كتابتة إلى عام ٣٨٨هـ وهو من أغزر كتبه مادة فهو يبحث فى تقاويم الأمم وأعيادهم المختلفة .

- كتاب " تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة " تحقيق إدوارد سخاو عام ١٨٨٧ (١٤) .

رابعاً : منهج البيروني العلمي في كتابه " تحقيق ما للهند " :

اتبع البيروني منهجا علميا محددا في دراسته لكتابه الذي بين أيدينا يتسم بالخصائص التالية :

١- اعتمد فيما يكتبه على منهج المشاهدة ومعاينة ما يراه بحواسه ، فلم يعول إلا على ما شاهده بنفسه وسمعه بأذنيه ولم يعتمد كثيرا على ما قرأه .

وفي ذلك يقول في مقدمة كتابه " إنما صدق قول القائل ليس الخبر كالعيان لأن العيان هو إدراك عين الناظر عين المنظور إليه في زمان وجوده وفي مكان حصوله " (١٥)

---

(١٤) وللكتاب عدة طبعات منها : طبعة حيدر أباد الدكن ١٩٢٥م . وطبعة حديثة ، نشر عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٨٣ .

(١٥) البيروني : تحقيق ما للهند من مقولة .. الطبعة الثانية ، عالم الكتب ، بيروت ١٩٨٣ ، المقدمة ص١٣ . ولاعجب في ذلك فمنهج البيروني كعالم فلك وطبيعيات يعتمد منهج البحث الاستقرائي القائم على المشاهدة ، وأنها الوسيلة الوحيدة في تحصيل المعارف . (أنظر : د. محمد ثابت الفندي : البيروني ، ص٣٥) .

٢- اصطنع في الكتاب أسلوبا رياضيا خالصا يعمد إلى التركيز الشديد مع الميل إلى استخدام قصار الجمل ، تنبني الواحدة منها على سابقتها في المعنى وترتبط بها ارتباطا وثيقا في تسلسل يبلغ به إلى ما يريد أن يقرره .

٣- اهتمامه بالمصطلح المستخدم في الدراسة وتحديده تحديدا دقيقا ؛ لذلك نراه يقوم بتحديد مدلولات الكثير من المصطلحات والعبارات السنسكريتية في أضيق حيز بأوضح لفظ عربي مبين ، الأمر الذي يقوم دليلا واضحا على أنه كان صاحب ثروة لغوية عربية غزيرة مكنته من الألفاظ والتعاريف على السواء ، إلى جانب تمكنه من اللغة السنسكريتية وتعمقه فيها ودراسته لآدابها [١٦] .

٤- الموضوعية في عرض أفكاره وآرائه ، والتجرد من فكرة التحيز العنصري أو الديني. وفي ذلك يقول " فمن مخبر عن أمر كذب يقصد فيه نفسه ، فيعظم بني جنسه ويزري بخلاف جنسه . وإن كلا هذين من دواعي الشهرة والغضب المذمومين . ومن مخبر عن كذب في طبقة يحبهم لشكر أو يبغضهم لنكر ، وهو مقارب للأول . فإن الباعث على فعله من دواعي المحبة والغلبة . ومن مخبر عن شيء متقربا إلى خير بدناءة الطبع أو متقيا لشر من فشل أو فزع .. " [١٧] .

٥- استخدم البيروني - إلى جانب ما سبق - منهج المقارنة في عرض الآراء والتحليلات التي يصل إليها في كتابه مع آراء اليونانيين وغيرهم ضمانا لتحقيق الفائدة وبهدف الوصول إلى الحقيقة فيما يرى وفي ذلك يقول " وليس الكتاب حجاجا وجدلا ، حتى استعمل فيه بإبراز حجج الخصوم ومناقشة الذرائع منهم عن الحق ، وإنما هو حكاية ، فأورد كلام الهند على وجهه وأضيف إليه ما لليونانيين من مثله لتعرف المقاربة بينهم . فإن فلاسفتهم وإن تحروا التحقيق ، فإنهم لم يخرجوا فيما اتصل بعوامهم من رموز نحلتهم

---

(١٦) البيروني : تحقيق ما للهند من مقولة ، تحقيق د. أحمد محمود الساداتي ، مجلة تراث الإنسانية ، مجلد (٣) العدد (٢) ص١٦ .

(١٧) البيروني : تحقيق ما للهند .. المقدمة ص١٣ - ١٤ .

ومواضعات ناموسهم ، ولا أذكر مع كلامهم كلام غيرهم إلا أن يكـون للصوفيـة ، أو لأحد النصارى لتقارب الأمر بين جميعهم في الخلول والاتحاد . " [١٨] .

وقد ألزم البيروني نفسه بهذا المنهج فجاء كتابه " تحقيق ما للهند من مقولـة .. " من أفضل ما كتب من حيث الأسلوب والتبويب وعرض الأفكار بطريقة مرتبة اتسـمت بالموضوعية وعدم التحيز .

فالمتأمل لأسلوب البيروني في هذا الكتاب بما سبقه في الكتب الأخرى يتضح لـه جليا تطور إنشائه ودقة تعبيره إلى الأفضل دوما على مدار الزمن [١٩] . الأمر الذي جعل من هذا الكتاب إحدى الثمار المرموقة في حقل الجغرافية الإقليمية ، والتـاريخ ودراسـة الأديان بل وفي مجال الأدب العربي .

---

(١٨) البيروني : تحقيق ما للهند .. المقدمة ، ص١٦ .

(١٩) البيروني : تحقيق ما للهند ، تحقيق د. الساداتي ، ص١٧ .

القسم الثاني

" عرض محتوى الكتاب "

التعريف بالكتاب :

قلنا إن الفرصة كانت سانحة أمام البيروني إبان مكثه بالهند وتدعيم حكم المسلمين بها على يد محمود الغزنوي لكي يدرس أحوال الهند ويجادل فلاسفتهم ويحذق لغاتهم ويقرأ أشعارهم .. ويدرس تقاليدهم وثقافتهم ، ويصل إلى أعماق مناهجهم في البحث والتفكير ، ويقف على أساليب حياتهم ، وهكذا تهيأت له الظروف وتكاملت بما وهبه الله من ملكة البحث والاستعداد للعمل لكي يبر بوعد كان قد وعده [٢٠] بتأليف سفر يبيّن فيه حضارة الهند وأسسها العقائدية والعلمية ومعالمها الجغرافية ومبادئها الفلسفية التى بنيت عليها .

وقد فرغ البيروني من تأليف هذا السفرالقيم في المحرم عام ٤٢٣هـ / ١٠٣١م . وكان قد بلغ الثامنة والخمسين من عمره .

ويحدثنا المستشرق الألماني (إدوارد سخاو) في مقدمته التي صدر بها هذا الكتاب إثر تحقيقه ونشره لأول مرة في أواخر القرن الماضي ١٨٨٧م ، أن ذلك السفر القيم تضمن فيما تضمن الوفير من المعلومات المهمة التي كان يجهلها المسلمون في

---

(٢٠) كان البيروني قد قطع على نفسه عهدا للسلطان " محمود الغزنوي " بتأليف كتاب شامل عن بلاد الهند وأحوال شعوبها . فبر بوعده وأخرج الكتاب ، غير هياب ولا وجل من مخالفة بعض ما فيه للعقل والمنطق (أنظر : البيروني : تحقيق ما للهند ، ص١٩) .

عصر البيروني والأوربيون في العصور الحديثة ، وقد ذاع اسم ذلك الكتاب بعنـــوان " تاريخ الهند" [٢١] .

ولقد مهد البيروني لتأليف كتابه هذا بترجمة رسالتين هنديتين في المبادئ وصفـــة الموجودات (سانك) وقد فقد ، وتخليص النفس من قبضة الجسد (باتنجل) [٢٢] وهمـــا رسالتان تحويان الكثير من عقائد الهند .

كما يبدو أيضا أنه كان يكتب كتابه هذا على دفعات قبل أن يدونه فـــي صورتـــه الأخيرة ببلده غزنـــه ، والنسخة التي كتبها أبو الريحان البيروني بنفسه عـــام ٤٢٣هـــ ١٠٣١م والتي تقع في ٧٠٠ صفحة قد فقدت على ما أخبرنا به فهرسه[٢٣] .

وأقدم نسخة خطية موجودة له ترجع إلى عام ٥٥٤هـــــ – ١١٥٩م وقـــد عنـــي بتحقيقها – كما أشرنا – المستشرق الألماني الدكتور إدوارد سخاو لبيزج عام ١٨٨٧م بعد اطلاعه على النسخة الخطية الموجودة .

وقد طبعت دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن هذا الكتاب عام ١٩٥٨م عن النسخة المخطوطة بباريس [٢٤] . وقد أعيد طبع الكتاب عدة طبعات منها ، طبعة بـــيروت عام ١٩٨٣ .

---

(٢١) البيروني : د. جمال الدين الفندي ، ص٣٧ ـ ٣٨ .

(٢٢) باتنجل : اسم مؤلف هندي عاش في حدود سنة ٣٠٠م واسم الكتاب الذي ألفه هو " جوكاســـترا " وهو نوع من التصوف والزهد عندهم يصل به صاحبه إلى الإتيان بأعمال عجيبة كرفع البدن في الـــهواء وتحريك الأشياء البعيدة وغير ذلك . والكتاب يهدف إلى ممارسة رياضة تخليص النفس من رباط البـــدن (اليوجا) (أنظر : المصدر السابق : ص٣٩)

(٢٣) البيروني : فهرس كتب الرازي ، طبعة باريس ١٩٣٦ ، ص٤٠ .

(٢٤) أحمد علي الشحات : أبو الريحان البيروني ، ص٨٤ .

فصول الكتاب :

قسم البيروني كتابه على ثمانين بابا أو فصلا تحدث فيها عن الكثير من الموضوعات العامة الشائقه .

وبتأمل محتوى هذه الفصول أمكن تصنيفها على النحو التالي :

استعرض فيها معالم منهجه في كتابه الكتاب ومحتوى اقسامه .

مقدمة عامة :

أولا : نحل أهل الهند واعتقادهم في الله .	[الفصل : ٢ – ٧]
ثانيا : مؤلفاتهم في العقيدة واللغة والفلك والتنجيم	[الفصل : ٧ – ١١]
ثالثا : طريقتهم في كتابة الحروف والأعداد	[الفصل : ١٢ – ١٧]
رابعا : عادات غريبة	[الفصل : ١٨ – ٣١]
خامسا : جغرافية وصفية ورياضية	[الفصل : ٣٢ – ٦٢]
سادسا : فلك – تقاويم	[الفصل : ٦٣ – ٧٦]
سابعا : شرائع دينية – قوانين – أعياد – تنجيم	[الفصل : ٧٧ – ٨٠]

وسوف نقوم بعرض فصول الكتاب على النحو السابق الذي أشرنا إليه ، ليصير عرض الكتاب محصورا في محاوره السابقة .

أولا : آراء دينية وفلسفية (نحل أهل الهند واعتقادهم في الله) :

يبدأ البيروني كتابه في الفصل الثاني بالحديث عن نحل أهل الهند واعتقادهم في الله تعالى وفلسفتهم الدينية وفيها يقول البيروني " ويعتقدون (يقصد الهنود) في الأرض أنها أرضهم وفي الناس أنهم جنسهم وفي الملوك أنهم رؤسائهم ، وفي الدين أنه نحلتهم وفي العلم أنه منهم فيترفعون ولا يظنون أن في الأرض غير بلدانهم ، وفي الناس غير

سكانها ، وأن الخلق عندهم علما غير علمهم ، حتى أنهم إن حدثوا بعلم أو عالم في خراسان وفارس استجهلوا الخبر ولم يصدقوه " [٢٥] .

وهو هنا يأبى إلا أن يكون منصفا في بحثه . برغم ما لحظه من تعاليهم عليه ، فيقرر بأن أوائلهم لم يكونوا بهذه المثابة من الغفلة " فهذا براهمن أحد فضلائهم يقول بأن اليونانيين وهم أجناس لما تخرجوا في العلوم وأنافوا فيها على غيرهم وجب تعظيمهم " [٢٦]

وفي محاولة تبرير موقف الأولين من أهل الهند لعدم أخذهم بمبدأ التفرقة بين الناس تراه يذكر كلمات حكيم آخر من حكماء الهند عارض هذه التفرقة " قال باسديو في طلب الخلاص: إن العاقل قد تساوى عنده البرهمي وجندال ، والصديق والعدو ، والأمين والخائن ، والحية وابن عرس . فإذا كان العقل هو الذي سوى فالجهل هو الذي فصل وفضل " [٢٧] .

وفي حديثه عن معتقدات الهند يذكر ما يروج عندهم في ذلك الوقت من الخرافات والأوهام ، ويشير إلى فرقه (السمنيه [٢٨]) عندهم وكانت على بغضاء شديدة للبراهمة ، وقد انتشرت تعاليمها في خراسان وفارس والعراق وبلغت الشام ، حتى ظهر زرادشت ودعا بالمجموسية فاحتلت مكانها .

---

(٢٥) البيروني تحقيق ما للهند .. ، ص٢٣ وما بعدها .

(٢٦) السابق : ص٢٤ فالهنود يعتبرون الناس أنجاسا ؛ لأنهم يذبحون البقرة ويأكلون لحمها ، وعلة تقديس البقرة في الأصل كونها نافعة تخدم في الأسفار وتنقل الأثقال وتفيد في الفلاحة والزراعة وتمد الناس بألبانها ، والإماته عندهم محظورة بالإطلاق ولكنهم يرون أن الناس يقومون إلى اللحم وينبذون فيه وراء ظهورهم كل أمر ونهى .

(٢٧) السابق : ص٣٧ .

(٢٨) السمنيه : فرقة هندية تنسب إلى نبيها (بوداسيف) وإليه أيضا نسب الصائبة أنفسهم . وهم من المعطلة ويقولون بالتناسخ (انظر : المقدسي : البدء والتاريخ جـ/١ ص١٩٨) .

١ـ قولهم فى وحدانية الله :

ويقرر البيروني أن الهنود يعتقدون – أيضاً – بوحدانية الله (٢٩) بدليل ما حدث في إحدى الندوات حين سأل أحد الملوك حكيما من حكمائهم على ملأ من الناس مستفسرا عن معنى من المعاني الإلهية . قال الحكيم " إن الله هو الذي لا أول له ولا آخر ، ولم يتولد عن شيء ، ولم يولد شيئا إلا ما يمكن أن يقال أنه هو ولا يمكن أن يقال أنه غيره ، وهل يمكن إدراك معرفته حتى يعبد حق عبادته إلا بالاشتغال به عند الدنيا بالكلية وإدامة الفكر فيه " (٣٠) .

أما بصدد الحديث عن النفس فيورد البيروني قول حكيمهم في أن " النفس غير فاعلة والمادة غير حية فالله المستغني هو الذي يجمع بينهما ويفرق فهو الفاعل والفعل واقع من جهته بتحريكها كما يحرك الحي القادر الموات العاجز وقال آخرون إن اجتماعهما بالطباع فهكذا جرت العادة في كل (ناش بال) (٣١) .. وقال آخرون الفاعل هو الزمان (٣٢) فإن العالم مربوط به رباط الشاه بحبل مشدود بها حتى تكون حركتها بحسب انجذابه واسترخائه ، وقال آخرون ليس الفعل سوى المكافأة على العمل المتقدم وكل هذه الآراء منحرفة عن الصواب (٣٣) .

---

(٢٩) وقولهم بالوحدانية الوارد في اسفارهم المقدسة (الفيدا) يشوبه الشرك لأن الوصول عندهم لمعنى الوحدانية في الإله لم يظهر إلا في النتاج الفلسفى المتطور والمتأخر كما في (الأوبنشيادات) نتيجة التطور الفكري والنضج في التفلسف التعبدي والديني حيث إنهم في المراحل الأولى عبدوا مظاهر الطبيعة والقوى الكونية ، وفي مراحل متتالية تطورت المفاهيم الدينية حتى بلغت مستوى التجريد (انظر:علي زيعور : فلسفات الهند ، دار الأندلس ، بيروت ، جـ / ٢ ، ص١١١) .

(٣٠) تحقيق ماللهند .. ص٤٩ .

(٣١) ناش بال : حادث فإن .

(٣٢) يقصد الدهريين الذي يجحدون وجود الصانع .

(٣٣) البيروني : تحقيق ما للهند .. ص٤٧ .

٢ـ عقيدتهم فى التناسخ :

كذلك تعرض البيروني بالشرح والتحليل الفلسفة الهنود ومعتقداتهم فىالله ، و في الوجود والأبدان والأرواح وتناسخها أو حلولها في مواضع الجزاء من الجنة والنار . والأرواح عندهم باقية لا تموت ، وإنما تحل في الأبدان حسب مقتضيات الحال .

يقول البيروني في هذا الباب " وكما أن الشهادة بكلمة الإخلاص شعار بإيمان المسلمين ، والتثليث شعار النصرانية ، والأسباب علامة اليهودية ، كذلك التناسخ علم النحلة الهندية ، فمن لم ينتحله لم يك منها ، ولم يعد من جملتها " (٣٤) .

ويزيدنا البيروني بيانا في وصف عقيدة الهنود الدينية في التناسخ فيذهب إلى أنهم ربطوا الثواب والعقاب والجنة والنار بنظرية التناسخ . فزعموا أن الغرض من جهنم تمييز الخير من الشر والعلم من الجهل . والأرواح الشريرة تتردد في النبات وحشاش الطير ومرذول الهوام إلى أن تستحق الثواب فتنجو من الشدة وتتردد فيما هو أرقى" (٣٥) .

ويذكر البيروني لنا كذلك أن " ماني " حين نفي من إيران فدخل أرض الهند نقل التناسخ إلى نحلته ، وأن الصوفية قد تأثروا بهذه النظرية إذ يجيزون حلول الحق في الأمكنة كالسماء والعرش والكرسي ومنهم من يجيزه في كل الكائنات (٣٦) .

٣ـ مراتب الخلائق عندهم :

ويقسم أهل الهند الخلائق إلى ثلاثة أجناس كما وردت في كتاب (سانك) الذي ترجمه البيروني عن الهندية ليتخذوه كأساس لكتابه تاريخ الهند : الروحانيون في الأعلى والناس في الوسط والحيوان في الأسفل .

ولا يكتفون بذلك حتى يسلكوا أبناء جنسهم في طبقات أربع علياها (البراهمة) (٣٧) وهم نقاوة الجنس ولذلك صاروا عندهم خيرة الإنس ، والطبقة التي تتلوهم هي كشتر

---

(٣٤) تحقيق ما للهند .. ، ص٤٨ .

(٣٥) السابق ، ص٤٩ .

(٣٦) مثل أصحاب نظريات الحلول والاتحاد ، ووحدة الوجود .

(الأكشترية) ورتبتهم عن رتبة البراهمة غير متباعدة جدا ، ودونهم بيش (الويشية) وهاتان الطبقتان الأخريان متقاربتان . وأحط هذه الطبقات هي (شودر) . ويضيف باسديو أن (البرهمن) يجب أن يكون وافر العقل بادي النظافة مقبلا على العبادة منصرف الهمة إلى الديانة وإن يكون (كشتر [٣٨]) شجاعا ذلق اللسان مهيبا في القلوب غير مبال بالشدائد ، وأن يكون (بيش [٣٩]) مشتغلا بالفلاحة واقتناء السوائم والتجارة . وأن يكون (شودر [٤٠]) مجتهدا في الخدمة والتملق متحببا إلى كل واحد بها . وبهذا تضم هذه الطبقات رجال الدين ، ورجال الحرب ، والتجار وأصحاب الأراضي ، والصناع والعمال [٤١] .

أما من عداهم فهم المنبوذون وهم هادي ودوم وجندال وكلهم جنس واحد ، ويتعاطون أدنأ الحرف ، وهم يرجعون إلى اختلاط بعض أبناء الطبقات الأولى الثلاث بالشوادر ، وهم بذلك منفيون منحطون لا يطاعمهم غيرهم أو يخالطهم .

٤ـ حكم إرسال الرسل : ـ

ينتقل البيروني عقب حديثه عن طبقات المجتمع الهندي إلى الحديث عن حكم إرسال الرسل ونسخ الشرائع عندهم فيذهب إلى القول " بأنهم يرون أن الشريعة وسننها صادرة عن (رشين) الحكماء وهم يضعون سنن الشرائع دون الرسول الذي هو (نارا ين) المتصور عند مجيئه لصور الإنس ولن يجيء إلا لحسم مادة شر يطل على العالم أو لتلافي واقع ولا عوض به في شيء من أمر السنن وإنما يعمل بها كما يجدها " فلأجل هذا وقع الاستغناء عن الرسل " عندهم في باب الشرع والعبادة .. أما نسخ الشرائع

---

(٣٧) البراهمة هم : سادة الكائنات المخلوقة (انظرعلي زيعور : الفلسفات الهندية ، المعجمية العامة ، ص٤٢٦ وما بعدها) .

(٣٨) كشتر : وهو المحارب من الطبقة الثانية في الطبقات الهندية .

(٣٩) بيش : من طبقة الملاك (الطبقة الثالثة) .

(٤٠) شودر : أفراد الطبقة الرابعة وهم العمال .

(٤١) السابق ، ص ٧٢ .

فهو غير ممتنع عندهم لأنهم يزعمون أن أشياء كثيرة كانت مباحة قبل مجيء (باسديو) ثم حرمت ومنها لحم البقر وذلك لتغير طباع الناس وعجزهم عن تحمل الواجبات ومنها أمر الانكحة والأنساب .. " (٤٢) .

ثانيا : كتبهم في العقيدة والفلك والتنجيم :

ينتقل البيروني بعد ذلك إلى الحديث عن كتب الهنود ومؤلفاتهم فيقول " ولهم كتب في فقه ملتهم وفى الكلام والزهد والتأله وطلب الخلاص من الدنيا مثل كتاب عمله (كور) الزاهد وعرف باسمه ، ومثل (سانك) عمله (كبل) في الأمور الإلهية ومثل (باتنجيل) (٤٣) في طلب الخلاص واتحاد النفس بمعقولها ، ومثل (نابيهاش) لكبل في (بيذ) وتفسيره وأنه مخلوق وتمييز الفرائض فيه من السنن ، ومثل (ميمانس) عمله (جيمن) في هذا المعنى ، ومثل (لو كايت) عمله (المشتري) في الأخذ بالحس وحده في المباحث ومثل (اكست مت) عمله (سهيل) في العمل فيها بالحس والخبر معا ، وغيرها من الكتب التي يضيق عنها الحصر . وكلها تعالج مفردات عقائدهم وطقوسهم المختلفة .

---

(٤٢) انظر : البيروني : تحقيق ما للهند .. ص٧٤ وما بعدها . ويلاحظ أن هناك من المسلمين من تأثر بهذه الأفكار عن إنكار النبوة وعلى رأس من خاضوا غمار هذه الأفكار في القرنين الثالث والرابع الهجرين أحمد بن اسحق الراوندي ، ومحمد بن زكريا الرازي .. والأول من أصل يهودي سكن بغداد واتصل بالمعتزلة ومن أشهر كتبه التي يهاجم فيها الإسلام ورجاله كتاب (الدامغ) يعارض به القرآن ، وكتاب (الفرند) في الطعن على النبي ﷺ وكتاب (الزمرده) في إنكار الرسل وإبطال رسالتهم ، أما الثاني فليس أقل خطرا من الأول على الإسلام ولد بالري سنة ٢٥٠هـ ونبغ في الكيمياء والطب ، اشتغل بالفلسفة وتأثر بآراء المزدكية والمانوية والمعتقدات الهندية ، وقد ألف كتابين اعتبرهما البيروني من الكفريات وهما كتاب (مخاريق الأنبياء) و (نقض الأديان) [انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ/١ ص٣٨ – ٣٩ ، وكذلك ابن المرتضي : المنية والأمل ، ص٥٣] .

(٤٣) سبقت الإشارة إلى هذين الكتابين ، فهما من أوائل الكتب التي ترجمها البيروني عن عقائد الهند وذلك قبل كتابته كتابه " تحقيق ما للهند .. ، انظر ص١٢ من البحث .

أما كتبهم في النحو والشعر فهي عديدة ، ويذهب البيروني إلـــى أن " أول مــن استخرج هذه الصناعة كان (بنكل) و(جلت) والكتب المعمولة في هذا البـــاب كثـيرة وأشهرها كتاب(كيست) باسم صاحبه حتى لقب علم العروض أيضـــا بـــه،وكتـــاب (مركـــلا نجـــن) وكتاب (بنكل) وكتاب (أولياند) " (٤٤) .

ويضيف البيروني قائلا " ولم أطلع على شيء منها ولا على كثير من المقالة التـي في (براهم سدهاند) في حالها بحيث أتحقق قوانين عروضهم ولا أســـتجيز مـــع ذلـــك الإعراض عما أتنسم رائحته إحالة إلى وقت الإحاطة .. " (٤٥) ويؤكد البيروني علـــى أن الهنود يصورون في تعديد الحروف شبه مـــا صـــوره الخليـــل بـــن أحمـــد الفراهيـــدي والعروضيون من العرب خاصة ما يتعلق بالمتحرك والساكن (٤٦) .

يقوم البيروني بعد ذلك باستعراض كتبهم في الفلك والرياضة والنجوم وما عندهم من آلات دقيقة ومقاييس وموازين وما يستخدمونه من أدوات في الكتابة . ومنـــها علـــى سبيل المثال لا الحصر : كتاب (براهم سدهاند) (لبراهمكوبت) ويشير البيروني إلـــى فهرس أبوابه فيقول " وأذكر فهرست أبواب (براهم سدهاند) فإن ذلك نافع في المعـارف في أحوال الكرة وهيئة السماء والأرض . في أدوار الكواكب ومزاولة الأزمنة واستخراج أوساط الكواكب وعمل الجيوب للقسي – في تقويم الكواكب – في عروض الكواكب – في كسوف الشمس – في ظل القمر – في الأزمان والمقادير الأربعة أعني الشمس والطلوعي، والقمري والمنازلي – في علامات الأعداد والأرقام من خلال المنظومات .. " (٤٧) .

---

(٤٤) البيرونى . تحقيق ما للهند ص ٩٦ .

(٤٥) السابق ص٩٧ .

(٤٦) انظر السابق ص٩٧ وما بعدها ، ويتضح هنا نزعة البيروني في الحفاظ على منهج المقارنة بيـــن عروض الشعر عند الهنود وعند العرب .

(٤٧) تحقيق ما للهند .. ص١٠٩ وما بعدها .

ويخرج البيروني بعد عرض كتب الهنود إلى عدة ملاحظات أهمها :

١- أن الهنود يسمون الشيء الواحد بأسماء كثيرة . مثل ذلك أنهم سموا الشمس بألف اسم وكتسمية العرب الأسد بقريب من ذلك . وهذا عنده من أعظم معايب اللغة (٤٨) .

٢- أن معظم كتبهم كتبت نظما ، إذ يرون أن المنثور أقبل للفساد من المنظوم فضلا عن أن ذلك مما يسهل استظهارها (٤٩) .

ويختتم البيروني حديثه عن كتب الهند بذكر كتاب (كليلة ودمنة (٥٠)) ويعرب عن أنه لو تمكن من ترجمة الكتاب وتصحيح ما اعتراه من تحريف على يد ابن المقفع فيقول " وبودي أن كنت أتمكن من ترجمة كتاب (بنج تنتر) وهو المعروف عندنا بكتاب (كليلة ودمنة) فإنه تردد بين الفارسية والهندية ثم العربية والفارسية على ألسنة قوم لا يؤمن تغييرهم إياه لعبد الله بن المقفع في زيادته باب (بروزيه) قاصدا فيه تشكيك ضعاف العقائد في الدين وكسرهم للدعوة إلى مذهب (المنانيه) وإذا كان متهما فيما زاد فلم يخل عن مثله فيما نقل (٥١) .

ثالثا : طريقتهم في كتابة الحروف والأعداد :

استرعت طريقة كتابة الحروف والأعداد انتباه البيروني لما لها من أهمية في تدوين العلوم وفي ذلك يقول البيروني " إن اللسان مترجم للسامع عما يريده القائل ولذلك قصر على راهن الزمان الشبية بالآن ، وأنى كان يتيسر نقل الخبر من ماضي الزمان إلى

---

(٤٨) انظر السابق ص٩٠ .

(٤٩) السابق ص٩٦ وبهذا يكون العرب قد تأثروا بالهنود في ذلك .

(٥٠) تأليف الفيلسوف (بيدبة الهندي) .

(٥١) السابق ص١١١ ، والمنانيه أو المانويه : هو مذهب ينسب إلى مؤسسه " ماني بن فاتك " وفيه يتابع الثنائية القديمة القائلة بأن مبدأ العالم كونان أحدهما نور والآخر ظلمة ، وكل منهما ينفصل عن الآخر : فالنور هو الإله الحق (الخير) . أما الظلام فهو الشر والكدر وبامتزاجهما تم خلق العالم ، والمعاد هو انحلال العالمين كل منهما إلى أصله أو عالمه ، وقد انتشرت كتب ماني وتعاليمه في فارس ثم انتقلت إلى المسلمين . (انظر الشهرستاني : الملل والنحل جـ/٢ ص٨٣).

مستأنفه على الألسنة وخاصة عند تناول الأزمنة لولا ما أنتجته قوة المنطق في الإنسان من أبدع الخط الذي يسري في الأمكنة سريان الرياح ومن الأزمنة إلى الأزمنة سريان الأرواح ، فسبحان متقن الخلق ومصلح أمور الخلق " (٥٢) .

وهذا القول يعد من أروع ما قيل عن اللسان وعن الكتابة فاللغة وليدة العقل وأداتها اللسان الذي ينقل للسامع ما يريده القائل ولولا الكتابة وما وصلت إلينا أخبار الماضي وعلوم السابقين وفلسفاتهم .

يواصل البيروني بعد ذلك حديثه عن الطريقة التي كان يستخدمها الهنود في الكتابة فيشير إلى أنهم لم يعتادوا الكتابة على الجلود كما يفعل اليونانيون ، ويروي قولا لسقراط حينما سئل عن علة عدم اهتمامه بتأليف الكتب قال : إنه يأبى أن يعمد إلى نقل الحكمة من قلوب الناس إلى جلود الضأن الميتة ولقد استعمل المسلمون في صدر الإسلام الكتابة على الجلود ، مثل ما فعلوا في كتابة المصحف على جلود الظباء ، ومثل كتاب نبي الهدى إلى كسرى ملك الفرس ، ومثل عهد بني خيبر من اليهود . وكان المصريون يعرفون القرطاس ويصنعونه من ورق البردي (الكاغد) ودونوا عليه مدوناتهم .

ويشير البيروني إلى أن أهل الجنوب من الهند استخدموا صحفا من ورق شجر باسق كالنخل أو النارجيل ، ولكنهم نسوا الكتابة بمضي الوقت حتى ظهر عالم منهم أحياها من جديد ، وكتابتهم من اليسار نحو اليمين كعادة اليونانيين (٥٣)ومخارج حروفهم تخالف مخارج الحروف العربية مما جعل النطق بها عسيرا على العربي والخط المشهور عندهم يسمى (سدما ترك) وربما نسب إلى كشمير . (٥٤) .

---

(٥٢) انظر تحقيق ما للهند .. ص١١٩ وما بعدها .

(٥٣) هو بنياس بن براشر ، وحروفهم في الكتابة خمسين ، واسم الحرف (اكشر) والسبب في كثرة حروفهم هو إفراد صورة للحرف الواحد عند تفاوت الإعراب إياه ، والهمزة والامتداد (تحقيق ما للهند .. ص ١٢١) .

(٥٤) قاعدة ارتكاز الحروف عند الهنود فوق الكلمات وعلى استقامة السطر ومنها ينزل الحرف وصورته إلى أسفل فإن علا القاعدة شيء فهو علامة نحوية تقيم إعرابه .

ويضيف البيروني أن أرقام الحساب عند الهنود تختلف عما عندنا ، رغم أننا نقلناها عنهم ، وهي أحسن ما عندهم وتفصيل الأمز أنه كانت لدى الهنود أشكال عديدة للأعداد اختار العرب منها مجموعتين . كل مجموعة مكونة من تسعة أرقام وبذلك كونوا سلسلتين هما (٥٥) :

١- سلسلة الأرقام الهندية التي يستعملها عرب المشرق اليوم .

٢- سلسلة الأرقام الغبارية ، وقد انتشرت وعم استعمالها عند عرب المغرب والأندلس ، ثم انتقلت من هناك إلى أوربا وهي تعرف الآن عندهم باسم الأرقام العربية Arabic Numerals .

وفي ذلك يقول البيروني " إن الأرقام الغبارية والهندية هي أحسن ما عند الهنود ، وهي منتخبة من أرقام الحساب المتنوعة التي كانت معروفة عندهم " (٥٦) . والسلسلة الغبارية مرتبة على أساس الزوايا فالرقم ١ يتضمن زاوية واحدة ، والرقم ٢ يتضمن زاويتين ، وهكذا . ثم أدخل على هذه الأشكال من التحوير ما جعلها تبدو على النحو الذي نعهده اليوم (٥٧) .

---

(٥٥) لمزيد من التفاصيل : انظر جمشيد الكاشي : مفتاح الحساب ، تحقيق د. أحمد سعيد الدمرداش ، طبع القاهرة (د . ت) .وأيضا :

- Cajori Florian: A history of Mathematics U.S.A. 1960.
- Frege G.: Foundation of Arithmatic, Oxford 1950.
- Smith D. E. Karpinsiky L. C.: The Hindu-Arabic numerals, London 1911.

(٥٦) البيروني : تحقيق ما للهند .. ص ١٢٦ .

(٥٧) الأرقام الغبارية هي الأرقام المرئية على حساب الزوايا كما يلي :

ثم أدخل على اشكال هذه السلسلة بعض التحوير وطرأت عليها تغيرات بسيطة فأصبحت في الشكل المعروف الآن وهو :

1 2 3 4 5 6 7 8 9

والعرب هم أول من أدخلوا الصفر في العمليات الحسابية وقد رمزوا له بنقطة تارة ودائرة تارة أخرى كما يفعل الأوربيون الآن [٥٨].

ومفتتح الكتب عندهم بكلمة (أوم) كافتتاحنا باسم الله وصورته ليست من حروفهم وإنما هي صورة مفردة له للتبرك مع التنزيه كاسم الله عند اليهود ثلاث ياءات عبرية [٥٩]

رابعا : عادات غريبة :

يذكر البيروني مجموعة من العادات الهندية التي يعتبرها عادات غريبة فيقول وفي سير الهند ما يخالف رسوم أهل بلادنا في زماننا مخالفة تصير بها عندنا أعجوبة .. ومنها :أنهم لا يحلقون شيئا من الشعر وأصلهم العرى لشدة الحر تعلى رؤسهم بالانكشاف ويضفرون اللحي ضفائر صيانة لها .. ويطولون الأظافر فخرا بالتعطل فإن المهن لا تأتي معها واستراوحا إليها في حك الرأس وفلي الشعر .. ويرمون بأواني المأكول إذا كانت خزفية ، ويحمرون الأسنان بمضغ الفوفل ويشربون الخمر على الريق ثم يطعمون ، ويحتسون بول البقر ولا يأكلون لحمها ، ويتسرولون بالعمائم ثم المفرط منهم يكتفي باللباس بخرقة قدر أصبعين يشدها على عورته بخيطين والمفرط يلبس سراويل محشوة

---

(٥٨) الصفر: يعبر عن خلو الخانة ، وكان الهنود في القديم يطلقون عليه اسم (سونيا ومعناها الفراغ) ، أما الهنود المتأخرون فكانوا يكتبونه دائرة فيها نقطة هكذا ⊙ أي خانة خالية وقد أخذ عرب المشرق النقطة وتركوا الدائرة لمشابهتها للعدد ٥ وأخذ عرب المغرب الدائرة وتركوا النقطة ، وكذلك فعل الأوربيون فيما بعد . وقد استعمل العرب لفظة الصفر للدلالة على خلو المنازل من الأرقام وقد أخذها الإفرنج واستعملوها في لغتهم فكان من ذلك Cipher ، Zyphr ، ثم تقلصت عن طريق الاختصار فأصبحت تعرف الآن باسم Zero في الأوربية ومن فوائد اختراع الصفر :

أولا : سهولة حل المعادلات الرياضية بمختلف درجاتها .

ثانيا : تطور جميع فروع الرياضيات وبالتالي تطور العلوم الفيزيائية والكيميائية والكونية لاعتمادها عليها .

ثالثا : تبسيط العمليات الحسابية عامة وخلوها من الاجراءات أو الطرق الصعبة المعقدة (انظر : Smith - Karpinski: Op. Cit P. 42)

(٥٩) البيروني : تحقيق ما للهند .. ص ١٢٢ .

بقطن يكفي لعدة لحف، وبرادع مسدودة المنافذ .. ويبدأون في الغسل بالرجل قبل الوجه، ويغتسلون ثم يجامعون .. والنساء يقمن بأمور الحراثة وأزواجهن في راحة ، ويتضمخون في الأعياد بالأخثاء بدل العطر .. ويتوجهون نحو الحائط في الغائط ويكشفون السوءة نحو المارة .. ويركبون بغير سرج ويشدون (الكتارة) الخنجر في أوساطهم من الجانب الأيمن .. ويأخذون اليد في المصافحة ، من جهة ظهر الكف ، ولا يستأذنون للدخول في البيوت ثم لا يخرجون من غير استئذان ، ويتربعون في المجالس ويبزقون بالنخامة غير محتشمين الكبراء ، ويقصعون القمل بين أيديهم .. ويسودون ألواح الكتابة للصبيان ويكتبون في طولها دون عرضها بالبياض ومن اليسار نحو اليمين .. ويكتبون اسم الكتاب في آخره ومختتمه دون أوله ومفتتحه .. ويتلاعب المقامران منهم بالنرد يضربه ثالث بينهما [٦٠] .

خامسا : جغرافية وصفية ورياضية [٦١] :

ينتقل البيروني بعد ذلك إلى الحديث باستفاضة عن ملامح الهند الجغرافية فيصف أنهارها ومخارجها وممراتها وجبالها وما يرويه الناس من أقاصيص عنها ، ويرسم حدود ممالكها وما لها من مدن ، ويحدد لكل مكان يذكره موقعه الجغرافي على خطوط الطول والعرض .

ويشير البيروني إلى تلك الملامح الجغرافية بقوله " وأرض الهند من تلك البراري يحيط بها من جنوبها بحرهم المذكور ومن سائر الجهات تلك الجبال الشوامخ ..(وكنوج) مسكن عظمائهم الجبابرة ، وأرض (السند) منها في غربها والوصول عندنا إلى السند من أرض (نمروز) أعني أرض (سجستان) وإلى الهند من جانب (كابل) .

---

(٦٠) البيروني : تحقيق ما للهند .. ص ص١٢٩ وما بعدها .

(٦١) تعنى الجغرافيا الوصفية بوصف الأقاليم والبلدان .أما الجغرافيا الرياضية فتعنى بالرسم على الكرة وتحديد مواقع البلدان بالنسبة لخطوط الطول والعرض ورسم الخرائط عموما ومن كتب البيرونى فى الجغرافيا (تسطيح الصور وتبطيح الكور) و(تحديد المعمورة وتصحيحها فى الصورة) و(تكميم صناعة التسطيح) .

وبلد (كنوج) موضوع على غرب نهر (كنك) كبير جدا ، وأكثره الآن خراب معطل لزوال مقر الملك عنه إلى بلد (باري) وهو في شرق كنك وبينهما مسيرة ثلاثة أيام أو أربعة . وكما أن (كنوج) اشتهر بأولاد (باندو) كذلك اشتهرت مدينة(ماهورة) بباسديو وهي على غرب نهر (جون) وبينهما ثمانية وعشرون فرسخا (٦٢)

أما عن الجبال : فيصف البيروني بدقه امتداد واتساع الجبال التي تخترق قلب آسيا إلى الشمال والشمال الغربي من الهند فيقول " وتكون الجبال حدود الهند الشمالية وهي جبال Himalant ــ هيمالايا الآن ــ ذوات الثلوج وما يخرج منها نحو الشمال يتجه صوب آسيا الوسطى ، وما خرج نحو الجنوب يجري في أرض الهند فمياه أرض الهند إما من الجبال الشمالية الباردة ، وإما من الجبال الشرقية وهي تلك بعينها قد امتدت إلى الشرق ، وانعطفت نحو الجنوب إلى أن بلغت البحر الأعظم ــ المحيط الهندي _ وداخلته قطعا بعد قطع عند المعروف يسد رام .. " (٦٣)

ثم يتحدث البيروني عن أنهار الهند فيذكر أنها تأتي من الجبال الباردة في الشمال أو من الجبال الشرقية .. وتناول منابعها ومجاريها بالتفصيل ، وذكر المصادر والمراجع الهندية الرئيسية التي استقى منها معلوماته عن أسماء تلك الأنهار والجهات التي تجتازها .. وذكر أن هذه الأنهار خمسه هي : ماء بيت ــ كندارهه ــ إيراواه ــ نهر كنج ، وتلتقي هذه الأربعة عند موضع يسمى مولتان أي مجمع الأنهار الخمسة فإنها تؤلف معا مجرى مائيا هائلا .. يصب في البحر عند موضعين أحدهما عند مدينة لوهراني بجوار كراتشي والآخر إلى الشرق قليلا ويعرف بسند ساكر أي بحر السند (٦٤) .

أما عن طرق المواصلات فيذكر البيروني ستة عشر طريقا سلكتها الحملة التي قادها مسعود بن محمود الغزنوي لفتح تلك البلاد ، وهي طرق عسكرية ومدنية ، وقد اعتمد

---

(٦٢) البيروني : تحقيق ما للهند .. ص ١٣٩ وما بعدها .

(٦٣) البيروني : يحقق ما للهند ، صـ ١٨٤
(٦٤) أنظر السابق : صـ ١٨٦

البيرونى فى تحديد هذه الطرق وأطوالها بالفراسخ بمرافقته لتلك الغزوات أو طبقا لما استفاده من معلومات من التجار والحجاج والبحارة والمسافرين .(٦٥)

ويصف البيروني بعد ذلك مدن الهند وخاصة(كشمير)فيذهب إلى أنها برية يحيط بها جبال عالية منيعة جنوبها وشرقها للهند وغربها لملوك أقربها (بلورشاة) ثم (شكنان شاه) (وخان شاه) إلى حدود (بذخشان) وشمالها وبعض الشرق للترك من(الختن) و(التبت) ومن ثنية (بهوتيشر) إلى كشمير على أرض التبت قريب من ثلاث مائة فرسخ .

أما عن أهل كشمير فيصفهم البيروني بأنهم رحالة ليس لهم دواب ولا فيلة ويركب كبارهم (الكتوت) وهي الأسرة ويحملون على أعناق الرجال .. وأهل كشمير يحتاطون دائما في الاستيثاق من مداخلها ودروبها ولذلك تعذرت مخالطتهم .. فلا يتركون هنديا مجهولا يدخلها وأشهر مداخلها من قرية (ببرهان) وهي على منتصف الطريق بين نهري (السند) و (جيلم) .

ومساحة (كشمير) أربعة فراسخ مبنية بالطول على حافتي ماء جيلم وبينهما الجسور والزواريق ،ومخرجه من جبال (هرمكوت) .

ويقول البيروني عن قلعة (لاهور) : ما رأيت أحصن منها (٦٦) !

أما عن المناخ فيقول البيرونى " وأرض الهند بأسرها تمطر مطر الحميم في الصيف ويسمونه (برشكال) وكلما كانت البقعة أشد إمعانا في الشمال غير محجوب بجبل فهذا المطر فيها أغزر ومدته أطول وأكثر ويتوالى أربعة أشهر كالقرب المصبوبة ." (٦٧)

تلك أهم تصورات البيروني حول جغرافية الهند ، وقد أفاد منها جغرافيو العرب المتأخرون من أمثال ياقوت وأبي الفداء والمقريزي كما اتضح من مؤلفاتهم .

---

(٦٥) انظر السابق ، صـ ١٨٩ ، والفرسخ حوالى ثلاثة أميال

(٦٦) السابق : ص١٤٩ .وفيما يذكر البيرونى عن بلاد الهند أيضا : مدينة بنارس وهى مركز عظيم للتعليم عند الهندوس ، ومدينة أوجين وهى مركز هام للمواصلات .

(٦٧) انظر : كراتشوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافي ، طبع القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص٢٥٧ .

سادسا : فلك وتقاويم :

أيام الأسبوع عند الهنود على أسماء الكواكب السبعة بأشهر أسمائها ويسمون الموقع (بار) فيتبع اسم الكواكب ... فيوم الأحد (أدت بار) أي للشمس ، ويم الإثنين (سوم بار) أي للقمر ويوم الثلاثاء (منكل بار) أي للمريخ ويوم الأربعاء (بد بار) أي لعطارد . ويوم الخميس (برهسبت بار) أي للمشتري ويوم الجمعة (شكر بار) أي للزهرة ويوم السبت (شنيشجر بار) أي لزحل (٦٨) .

وقد ترتب على إعادة ترتيب الكواكب بالأيام وضع زيجاتهم على هذا النحو ويعرضون سائر النظم الأخرى وإن كانت أقرب إلى الحق كما يرى البيروني .

والسماء والعالم عندهم مستديران والأرض كرية الشكل ، نصفها الشمالي يبس ونصفها الجنوبي مغمور بالماء ومقدارها عندهم أعظم مما هو عند اليونانيين .

وعن ترتيب باقي الكواكب وأبعادها وأعظامها يذهب البيروني إلى أن الهنود طبقا لملتهم يرون أن بعد السماء عن الأرض يكون بمقدار نصف قطر الأرض والشمس أسفل الجميع والقمر فوقها والمنازل وكواكبها فوق القمر وفوقها عطارد ثم الزهرة ثم المريخ ثم المشتري ثم زحل ثم بنات نعش ثم القطب فوقها والقطب متصل بالسماء وممتنع أن تقع الكواكب تحت إحصاء الإنسان .. والشمس كرية الشكل نارية الطبع ذات ألف شعاع لها تأخذ الماء فيكون منها للمطر أربعمائة وللثلج ثلثمائة وللجو ثلثمائة (٦٩) .

أما عن منازل القمر عندهم فهي تتحقق في سبعة وعشرين يوما وثلث يوم هي مدة الشهر العربي والتي تتحقق بالرؤية الشرعية عندنا .

أما عن البروج والدرجات ، فإنهم يقسمون دوائر العروض المارة على مبادئ البروج تقسم الكرة بأقسام متساوية اثنى عشر يحيط بكل واحد منها نصف دائرتين متلاقيتين على القطبين ، وكل واحد من هذه القطع هو البرج ، والقطع الواحد من هذه ،

---

(٦٨) البيروني : تحقيق ما للهند .. ص ١٥١ .

(٦٩) البيروني : تحقيق ما للهند .. ص ٣٥٤ .

وكل ما يحويه فهو منسوب إليه ، وقد جعل لها من الكواكب الثابتة الواقعة فيها صور للتسمية والأسماء ، فسمي البرج الذي مبدؤه نقطة الاعتدال الربيعي نحو التالي الذي جهته جهة المشرق كبشا الصورة الواقعة في وسطه ، والثاني ثورا ، والثالث توءمين ، والرابع سرطانا ، والخامس أسدا والسادس عذراء ، والسابع ميزانا ، والثامن عقربا ، والتاسع راميا ، والعاشر جديا ، والحادي عشر ساكب ماء ، والثاني عشر سمكتين ، وهذه أسماؤها بالحقيقة وإن اشتهرت عند الناس بغيرها كالكبش بالحمل ، والتوءمين بالجوزاء ، والعذراء بالسنبلة ، والرامي بالقوس ، وساكب الماء بالدلو ، والسمكتين بالحوت ، والمنطقة نفسها تمر على وسط كل برج (٧٠) .

تلك أهم التصورات التي يرويها البيروني عن علم الفلك الهندي ، وعن مدى ارتباطها بالتصورات الكوزمولوجية لديهم ، وتحديد التقاويم ورصد الظواهر الفلكية المختلفة (٧١) .

سابعا : تقاليد دينية :

١- طقوس العبادة : -

يفيض البيروني بعد ذلك في بيان التقاليد الدينية السائدة في الهند وخاصة ما يتعلق منها بالبراهمة ، فيبين أن المراحل التي يمر بها (البرهمن) في حياته الدينية وما يمارسه من الطقوس وما يجوز له أن يشتغل به من الأعمال وما لا يليق ، فيقول " البرهمن بعد مضي سبع سنين منه منقسم لأربعة أقسام ، فأول قسم وهو السنة الثامنة يجتمع البة البراهمة لتنبيهه وتعريفه الواجبات التى عليه وتوصيته بالتزامها واعتناقها مادام حيا ، ثم يشدون وسطه بزنار ويقلدونه زوجا من (جنجوي) وهو خيط مفتول من تسع قوى وفرد ثالث معمول من ثوب ، يأخذ من عاتقه الأيسر إلى جنبه الأيمن ، ويعطى

(٧٠) السابق : ص٣١٢ ويلاحظ أن الآراء والدراسات الفلكية للبيرونى عموما ضمنها كتابه " القانون المسعودى " وخاصة مايتعلق منها بتعيين الجهات الأصلية ، ومعرفة فصول السنة ، وحركة أوج الشمس ، وسير القمر وظاهرة المد والجزر .

(٧١) انظر : كراتشوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي ، ص٢٥٨ .

قضيبا يمسكه وخاتم حشيشة يسمى (دريهي) يتختم به في البنصر اليمنى ، ويسمى هذا الخاتم (ببتر) ، والغرض منه التيمن والبركة "(٧٢).

يستمر (البرهمن) على هذا الحال حتى الخامسة والعشرين من عمره حيث يجب عليه فيها أن يتزهد ويجعل الأرض وطاءه ويقبل على العلم (ببيذ) وتفسيره وعلم الكلام والشريعة من أستاذه يخدمه ليلا ونهارا ويغتسل كل يوم ثلاث مرات ويقيم قربان النار في طرفي النهار ، ويسجد لأستاذه بعد القربان ، ويصوم يوما ويفطر يوما مع الامتناع عن اللحم أصلا ، ويكون مقامه في دار الأستاذ .. لا يخرج منها إلا للسؤال والكدية من خمسة بيوت فقط كل يوم مرة عند الظهيرة وعند المساء ، فما وجد وضعه بين يدي أستاذه ليتخير منه ما يريد ، ثم يأذن له في الباقي فيتقوت منه .

أما القسم الثاني منه فهو من الخامسة والعشرين إلى الخمسين وفيها يأذن له الأستاذ بالتأهل ، فيتزوج ويقصد النسل على أن لا يطأ امرأته في الشهر أكثر من مرة عقب تطهر المرأة من الحيض ، ولا يجوز أن يتزوج بامرأة تجاوز سنها اثنتى عشرة ، ويكون معاشه إما من تعليم البراهمه وما يصل إليه منه فعلى وجه الإكرام لا على وجه الأجرة ..

وأما القسم الثالث فهو من سن الخمسين إلى الخامسة والسبعين .. وفي هذا القسم يتزهد ويغادر (الكذخذاهية) ويسلمها إلىالزوجة وإلى أولاده إن لم تصحبه إلى الأصحار، ويستمر خارج العمران على السيرة التي سارها في القسم الأول ...

أما القسم الرابع فهو إلى آخر العمر يلبس فيها لباسا أحمر ويأخذ بيده قضيبا ، ويقبل على الفكرة وتطهير القلب من الصداقات والعداوات ورفض الشهوة والحرص والغضب ولا يصاحب أحدا البتة ويجتهد في العبادة حتى يتحقق له الخلاص والوصول الى (موكش) الذي لا رجوع فيه إلى الدنيا .. (٧٣).

---

(٧٢) البيروني : تحقيق ما للهند .. ص ٤١٢ .

(٧٣) السابق : ص٤١٤ وما بعدها .

ينتقل البيروني بعد ذلك إلى شرح أحوال (كشتر) و(بيش) : أما (كشــتر) فإنه يقرأ (بيذ) ويتعلمه ولا يعلمه .. ويسوس الناس ويقاتل عنهم فإنه مخلوق لذلك .

وبالنسبة (لبيش) فتوكل إليه أعمال الفلاحة والعمارة ورعي السوائم أما (شودر) فيذكر البيروني عنه بأنه للبرهمين بمثابة عبد يتصرف في أشغاله ويخدمه . وكل عمل يخــص البرهمن من التسابيح وقراءة (بيذ) وقرابين النار فهو محظور عليه حتى أنه وبيــش إن صح عليهما قراءة بيذ رفعهما البراهمة إلى الوالي فقطع لسانهما .

٢- العبادات والمعاملات : -

أما ذكر الله وعمل البر والصدقة فهو غير ممنوع عنه . وكل من تعاطى ما ليس لطبقته أن يتعاطاه كالبرهمن التجارة وشودر الفلاحة فهو آثم .. (٧٤) .

والحج عندهم ليس من المفروضات ، وإنما هو تطوع وفضيلة ، وهو أن يقصــد الحاج البلاد الطاهرة أو أحد الأصنام المعظمة ، أو أحد الأنهار المطهرة فيغتسل ويخــدم الصنم ويهدي إليه ويكثر التسبيح والدعاء ويصوم ويتصــدق علــى البراهمــة والســدنة وغيرهم ويحلق رأسه ولحيته وينصرف .. (٧٥) .

وبالنسبة للصدقات (٧٦) فيشير البيروني إلى أنهم يعتبرونها واجبة كل يوم بما أمكن ولا يترك المال حتى يحول عليه الحول ، فإن ذلك عندهم إحالة إلى مجــهول لا يعــرف الإنسان هل يبلغه ، وأول ما يؤدى في الصدقة هو ما يخص الوالي . وأداؤه يسقط عــن البرهمن .

والربا في المال بالمال محرم عندهم ، وإثمه بقدر الزيادة الموضوعة علــى رأس المال ، وليس فيه رخصة إلا لشودر على ألا يجاوز الربح خمس عشر رأس المال (٧٧) .

---

(٧٤) البيروني : تحقيق ما للهند .. ص ٤١٦ .

(٧٥) السابق : ص٤٢٠ .

(٧٦) وربما يقصد أيضا الزكاة لأن سياق الكلام يدل على ذلك .

(٧٧) انظر : تحقيق ما الهند .. ص ص٤٢٥ .

ويحظر على الجميع بالإطلاق الإماتة كما هو على النصارى والمانويه ولا يتبع هذا الحظر إلا البراهمة لاختصاصهم بالدين ومنع الدين إياهم عن اتباع الشهوات .

والمنصوص عليه بالتحريم من النعام البقر والخيل والبغال والأحمرة والأبعرة والفيلة والدجج الأهلية والغربان والببغاء وبيض جميعها بالإطلاق والخمر إلا لشودر .

ويذكر البيروني حجتهم في عدم ذبح البقر لأنه هو الحيوان الذي يخدم في الأسفار بنقل الأحمال والأثقال وفي الفلاحة والزراعة وفي الكذخذاهيه بالألبان وما يخرج منها ينتفع بأخثائه بل في الشتاء بأنفاسه .. (٧٨) .

٣- عادات الزواج :

ينقل إلينا البيروني بعد ذلك قدرا من عادات الهنادكة ورسومهم القديمة عن الزواج فيقول " ومن شأن الهند أن يكون التزويج فيهم على صغر السن ولذلك يعقده الأبوان لأبنائهم ، فيقيم البراهمة فيه رسوم القرابين ويبث فيهم وفي غيرهم الصدقات ، وتظهر آلات الأفراح ، ولا يسمى بينهما مهر ، وإنما يكون فيه للمرأة حيلة بحسب الهمة ونحلة معجلة لا يجوز ارتجاعها إلا أن تهبها المرأة بطيبة من نفسها ، ولا يفرق بين الزوجين إلا الموت إذ لا طلاق لهم ، وللرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة إلى أربع ، وما فوق الأربع محرم عليه إلا أن تموت إحدى من تحت يده منهن فيتمم العدد بغيرها ولا يتجاوزه وأما المرأة إذا مات زوجها فليس لها أن تتزوج وهي بين أحد أمرين إما أن تبقى أرملة طول حياتها وإما أن تحرق نفسها وهو أفضل حاليها لأنها تبقى في عذاب مدة عمرها (٧٩).

والقانون في النكاح عندهم أن الأجانب أفضل من الأقارب ، وما كان أبعد في النسب من الأقارب فهو أفضل مما قرب فيه ، فأما ما جرى على استقامة إلى أسفل أعنى نكاح ابنة الأولاد وأولاد الأولاد إلى أعلى من أم وجدة وأمهاتهن فمحرم أصلا ، وأما مالنحرف عن الاستقامة وتفرع إلى الجانبين من أخت وبنت أخت وعمة وخالة وبناتهما

---

(٧٨) السابق : ص٤٢٧ .

(٧٩) البيروني : السابق ص٤٢٨ .

فكذلك في التحريم إلا أن يتباعد بالأنسال خمسة أبطن متوالــد فــي الأولاد ، فــيزول التحريم حينئذ مع بقاء الكراهة [٨٠] .

وعدة النساء عندهم بحسب الطبقات فهي للبرهمن أربع ولكشتر ثلاث ولبيش ثنتان ولشودر واحدة . ويجوز لكل واحد من أهل الطبقات أن يتزوج من طبقته ومما دونها ولا يحل له أن يتزوج من طبقة فوق طبقته ، ويكون الولد منسوبا إلى طبقــة الأم دون الأب فإذا كانت امرأة البرهمن مثلا برهمنا كان الولد كذلك وإن كانت شودرا كان شودرا .

وأما الحيض فإن أكثره بالرؤية ستة عشر يوما وبالتحقيق هو الأربعة أيام الأولى ، وإتيان المرأة فيها محظور بل قربها في البيت كذلك فإنها حينئذ نجسة ، فــإذا انقضــت الأيــام الأربعة واغتسلت طهرت وحل إتيانها وإن لم ينقطع الدم عنها فإن ذلك ليس بحيض وإنما هو مادة للأجنة .

وبالنسبة للنفاس لا يحق لها أن تقرب من آنية الطعام ولا يؤكل في دارها شــيء ، ولا يوقد فيها نار .. وتلك الأيام تكون للبرهمن ثمانية ولكشتر اثنى عشر ولبيش خمســة عشر ولشودر ثلاثين ، وأكثر الرضاع ثلاثة أحوال من غير وجوب ، والعقيقة في الثالثـة وثقب الأذن في السابعة أو الثامنة [٨١] .

٤-أساليب التقاضي :

ينقل البيروني بعد ذلك بعض قوانين البرهمن وأساليب التقاضي عندهم فيقــول " .. والقاضي يطالب المدعي بالكتاب المكتوب على المدعى عليه بالخط المعروف المرشــح لأمثاله والبينة المثبتة فيه فإن لم يكن فالشهود بغير كتاب ، ولا أقل في عددهم من أربعــة فما فوقها إلا أن تكون عدالة الشاهد مقررة عند القاضي فيجيزها ويقطع الحكم بشهادة ذلك الواحد من غير أن يترك التجسس في السر والاستدلال بالعلامات في العلانيــة وقيــاس بعض ما يظهر له إلى بعض والاحتيال لاستنباط الحقيقة كما كان يفعل إياس بن معاوية ،

---

(٨٠) انظر : السابق : ص٤٢٨ - ٤٢٩ .

(٨١) انظر : البيروني تحقيق ما للهند .. ص٤٢٩ وما بعدها .

فإن عجز المدعي عن إقامة البينة لزم المنكر اليمين ويجوز أن يصرفه إلى المدعي ويغلبه عليه فيلزمه حلف اليمين .. وفوق هذه اليمين يجاء به إلى نهر شديد الجري عميق القرار أو إلى بئر بعيدة القعر كثيرة الماء فيقول للماء : أنت من أطهار الملائكة عارف بالسر والعلانية فاقتلني إن كنت كاذبا واحرسني إن كنت صادقا ثم يلقى فيه ، فإنه إن كان صادقا لم يغرق فيه ولم يمت ... ويستمر البيروني في سرد أعيان الأجناس عندهم إلى أن يصل إلى عظمى الأيمان والبينة عليه : أن تحمى زبرة حديد إلى حد الذوبان وتوضع على كتف المنكر ليس بينها وبين الجلد سوى ورقة عريضة من أورق النبات تحتها حبات أرز قليلة متفرقة في قشورها ويؤمر بحملها سبع خطوات ثم يرمى بها إلى الأرض (٨٢) .

٥- العقوبات والكفارات :

أما بالنسبة للعقوبات والكفارات فيذهب البيروني إلى أنهم يشبهون النصارى فيها ، فهي مبنية على الخير وكف الشر من ترك القتل أصلا ورمي القمصان خلف غاصب الطيلسان ويمكن لاطم الخد من الخد الأخرى .. والمنوط بفرض العقوبات في الناس بالذنوب هم الملوك لا العلماء .. وحد القتل تكون العقوبة فيه مرتبطة ببعض الضوابط ، فإذا كان القاتل برهمن والمقتول من سائر الطبقات لم يلزمه إلا كفارة وهي تكون بالصوم والصلاة والصدقة ، وإن كان المقتول برهمنا أيضا كان أمره إلى الآخرة ولم يجزه كفارة إذ الكفارة تمحو الذنوب وليس شيء يمحو من البرهمن كبائر الآثام .. ثم بعد ذلك قتل البقر ثم شرب الخمر ثم الزنا .. أما من هم دون البرهمن دكشر فإن قتل بعضهم بعضا يكفر بكفارة . أما السرقة فعقوبة السارق بمقدارها وهي التنكيل بالإفراط أو التوسط وربما أوجبت التأديب والتغريم وربما أوجبت الاقتصار على الفضيحة والتشهير ، فإذا كان المقدار عظيما اسمل الولاة البرهمن أو قطعوه من خلاف وقطعوا كشتر ولم يسملوه وقتلوا غيرهما .

وعقوبة الزانية أن تخرج من بيت الزوج وتنفى ولا كفارة لها (٨٣) .

---

(٨٢) السابق : ص٤٣٢ .

(٨٣) السابق : ص٢٣٣ – ٢٣٤ .

٦-المواريث :

أما المواريث فالأصل فيها عندهم – كما يرى البيروني – سقوط النساء منها ما خلا الابنة فإن لها ربع ما للابن ، وجهازها من ميراثها . أما الزوجة فإن آثرت الحياة ولم تحرق نفسها كان على الوارث رزقها وكسوتها ما دامت [٨٤] .

٧- الأعياد :

ينتقل البيروني بعد ذلك إلى ذكر أعيادهم ، والعيد عندهم يسمى (زاتر) وأكثر الأعياد تكون للنساء والولدان ، واليوم الثاني من (جيتر) [٨٥] عيدلأهل كشمير يسمى (أكدوس) وسببه ظفر ملكها (مُى) بالترك .. واليوم الحادي عشر من نفس الشهر يسمى (هندولي جيتر) يجتمعون فيه على (ديوهر باسديو) ويرجحون صنمه كما كان يفعل به في الأرجوحة وهو صبي ، وكذلك يحتفلون في بيوتهم ويفرحون ... ويعدد البيروني بعد ذلك العديد من الأعياد على مدار السنة في بعض الشهور وطقوسهم فيها [٨٦]

٨- التنجيم :

يختتم البيروني كلامه بالحديث عن النجوم وأحكامها واستخدامها في التنبؤ وتخريج دلالتها بطريقة مسهبة ويضع لذلك العديد من الزيجات الشارحة لذلك [٨٧] .

---

(٨٤) السابق : ص٣٣٥ .

(٨٥) جيتر : يناير ، وباقي الشهور على النحو التالي : بيشاك : فبراير – جيرت : مارس – أشار : إبريل – أشرابن : مايو – بهادريب : يونيه – أشوجج : يوليه – كارتك : أغسطس – منكهر : سبتمبر – لوش : أكتوبر – ماك : نوفمبر – بالكن : ديسمبر .

(٨٦) انظر : البيروني : السابق ص٤٤٦ وما بعدها .

(٨٧) انظر السابق ص٤٧٣وما بعدها .

تعقيب :

بعد أن انتهينا من عرض محتويات هذا السفر القيم ، نتوقف هنا عند بعض الملاحظات الواجب ذكرها تعقيبا على الكتاب ومؤلفه :

١- الكتاب يعد من أفضل ما كتب عن الهند وحضارتها حيث إن عرض محتوياته يكشف عن دراسة نقدية عميقة مستفيضة،والكثير مما تضمنه هذا الكتاب من معلومات قيمة لم يكن بالجديد على المسلمين في ذلك الوقت فحسب،بل لقد كان كذلك بالنسبة للثقافة الأوربية في العصور الحديثة على ما يشير إليه المستشرق الألماني إدوارد سخاو في المقدمة القيمة التي صدر بها هذا الكتاب حين نهض بتحقيقه ونشره في أواخر القرن الماضي .

٢- على الرغم من كون البيروني فارسي الأصل نجد اندفاعه إلى اللغة العربية وتعصبه لها لا مثيل له فهو يجعلها أداة رئيسية للتعبير في غالبية مؤلفاته ، ويرى أن لغته الأم (السغدية) لغة خوارزم عاجزة عن أن تحقق النهضة العلمية وشروطها . ولعل في هذا دعوة لتدوين العلم بلغتنا العربية الرصينة.

٣- ساعد عقل البيروني الموسوعي على بروز نجمه في الأوساط الثقافية فقد كان ـ في آن واحد وعلى مستوى التحصيل والتأليف والابتكار والإبداع ـ فيلسوفا ورياضيا وفلكيا وجغرافيا ومؤرخا ولغويا وشاعرا ورحالة ، وكتب في الطب والصيدلة والطبيعيات والتقاويم وعلم الأجناس وتاريخ الأديان والمعتقدات والمذاهب وفي علوم المنطق والتنجيم ومن هنا كان إسهامه في مضمار المعرفة الإنسانية فريدا في بابه ، وكتابه الذي بين أيدينا خير دليل على ذلك .

٤- اتسمت طريقة عرض الكتاب بالتشابه في جميع الفصول من حيث البدء فهو يسوق ملاحظات عامة تعقبها مقتطفات موثوق بصحتها من المؤلفين الهنود ، ثم النظر في المسائل التي عالجوها ومقارنتها بملاحظاته الشخصية الفذة . أما ما يحفل به الكتاب من مادة علمية فهو شيء يقف فريدا في بابه ولا يوجد له أي مثيل .

٥- من الملاحظ على أسلوب الكتاب خلوه من السلاسة والسهولة وإن كان لا يمكن وصفه بالغموض الذي يتعذر معه استنباط المعاني من بين السطور ، وقد استطاع مؤلفه بعبارته القصيرة أن ينفذ إلى المعنى الذي يريده ، بحيث يمكن للقارئ أن يضع يديه في شيء من

السهولة على معانيه مهما كانت ملفوفة في عبارات تخلع عليها الغموض . أو بعبارة أخرى ، أن ما يصادف القارئ عنده من عبارات قد يغلب عليها الغموض لا تلبث أن ينجلي لنا ما تحمله من المعاني حين نمضي في المطالعة والاستقراء ؛ فربما يجيء في بعض الأبواب ذكر مجهول وتفسيره آت فيما يتلوه .

٦- لا يتردد البيروني في أن يعلق صراحة بأنه إنما يكتب فقط للخاصة من العلماء الذين يفترض فيهم الإحاطة التامة بمعارف عصره ، ولذلك يقول في مقدمة كتابه (الآثار الباقية عن القرون الخالية) " إني أخلي تصانيفي عن المثالات ليجتهد الناظر فيما أودعته فيها لمن كان له دراية واجتهاد وهو محب للعلم . ومن كان من الناس على غير هذه الصفة فلست أبالي فهم أم لم يفهم " (٨٨) .

٧- اعتمد البيروني في رواياته وما يذكره من آراء في الكتاب على المصادر الأصلية فهو كعالم محقق يأبى أن يذكر حديثا عن قوم أو ملة دون أن يدعم حكايته بمصادرهم ، وإلا لما اختلف كلامه عن كلام العوام .

وقد أدى به نهجه هذا مع ميله الشديد إلى الجدل والمناظرة وما كان يصطنعه فيها من أسلوب ساخر عنيف إلى التعرّض لمخاصمة كثيرين له في زمانه وبعد زمانه ، حتى كان من كتاب التراجم من سكت عن الإشارة إليه ولو بكلمة واحدة ومنهم ابن خلكان .

٨- يصف أعلام المستشرقين البيروني في عصرنا هذا بأنه كان بطليموس عصره ويقرون أنه فاق كل علماء زمانه بمعرفته الواسعة العميقة في الرياضيات والفلك وتقويم البلدان ، فضلا عما كان يتمتع به من قريحة نفاذة وما تصدر عنه من اتجاهات نقدية تشبه إلى حد كبير تلك التي عرفتها أوربا في عصورها الحديثة (٨٩) .

ولعلي بعد هذا العرض أكون قد وفقت إلى بيان محتوى كتاب من كتب التراث الإسلامي المهمة لمؤلف محقق هدفه البحث عن الحقيقة من خلال استخدامه لقواعد المنهج العلمي ، وتمكنه الواضح من أدواته . ليصبح بحق واحداً من أبرز علماء الحضارة الإسلامية ، ويكون كتابه الذي بين أيدينا من أشمل وأدق ما كتب في بابه .

---

(٨٨) بتحقيق إدوارد سخاو ، ليبزج ١٧٨٧ ، ص٧٠ .

(٨٩) السابق : ص٧١ والمستشرقون من أمثال جورج سارطون ، كارلو ألفونسو نللينو ، وشخت .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية : ــ

١-ابن ابى أصبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ج/٢ ، طبع القاهرة ١٣٠٠هـ .

٢-ابن خلكان : وفيات الأعيان ، طبع القاهرة ١٩٤٨م .

٣-ابن النديم : الفهرست ، طبعة ليبزج ، سنه ١٨٧١م .

٤-أحمد محمود الساداتى (الدكتور) : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية طبع القاهرة (د.ت) .

٥-البيرونى (أبو الريحان) : تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة نشرة عالم الكتب ، بيروت ١٩٨٣م .

٦-البيرونى (أبو الريحان) : تحقيق ما للهند من مقولة ، بقلم د/أحمد محمود الساداتى (مجلة تراث الأنسانية مجلد ٣ العدد ٢٢ .)

٧-البيرونى (أبو الريحان) : رسالة فى فهرس كتب محمد بن زكريا الرازى ، نشرة ماكس كراوزه باريس ١٩٣٦م .

٨- البيهقى (ظهير الدين) : تاريخ حكماء الاسلام ، تحقيق محمد كرد على ، دمشق ١٩٤٦م .

٩- السمعانى : الأنساب جـ/٢ طبعة حيدر أباد الدكن ١٩٣٦م .

١٠- الشهرستانى : الملل والنحل ، جـ/٢ ، طبع القاهرة ١٩٦١م .

١١- القفطى : تاريخ الحكماء ، طبعة ليبزج ، ١٩٠٣م .

١٢- الكاشى(جمشيد) : مفتاح الحساب ، تحقيق أحمد سعيد الدمرداش طبع القاهرة (د.ت) .

١٣- المسعودى : مروج الذهب ، طبعة القاهرة ، ١٣٤٦ هـ

١٤- المقدسى : البدء والتاريخ جـ/١ ، طبع القاهرة (د.ت).

١٥- جمال الدين الفندى (الدكتور) : البيرونى ، سلسلة أعلام الفكر ، طبعة القـاهرة ١٩٦٨م

١٦- على أحمد الشحات : البيرونى ، حياته مؤلفاته أبحاثه طبع القاهرة ١٩٦٨م .

١٧- على سامى النشار (الدكتور) : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسـلام جـ/١ طبـع دار المعارف (د.ت) .

١٨- على زيعور(الدكتور) : فلسفات الهند ، طبع دار الأندلس ، بيروت ١٩٨٣م .

١٩- كراتشوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى ، طبع القاهرة ١٩٦٣م .

٢٠- محمد سويسى(الدكتور) : أدب العلماء جـ/١ ، ط/٢ تونس ١٩٨٥م .

٢١- محمد كرد على : جواهر البيرونى (مجلة مجمع دمشق العدد ١٧) ١٩٤٢م .

٢٢- نللينو (كارل ألفونسو) :علم الفلك تاريخه عنـد العرب فى القرون الوسطى ، طبـع روما ١٩١١م.

٢٣- ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ/١٧ طبع القاهرة ١٩٣٦م.

ثانيا : المصادر الأجنبية :

(1) Cajori florion : A history of Mathematics U.S.A 1960

(2) Frege G : Foundation of Arithmetic Oxford 1950

(3) Hawell E.B : The history of Aryan Rule in india , london (n.d)

(4) Smith D.E. – Karpinsiky L.C. : The Hindu – Arabic numerals , London 1911 .